شهيد الدين في بلاد الصين

نبذة تاريخية للاب لويس شيخو اليسوعي

بينما كانت أنباء الشرق الاقصى تتوارد علينا فتثير في قلوبنا اللوعات على فقد الوف من الرسلين الغيورين والنصارى الوطنيين الذين ذهبوا ضحايا همجيّة البوكسير او فرائس ظلم المعتدين ألهم الله كنيستهُ البطرسية امّ الكنائس ومعلمتها ان تعزّي قلوب المؤمنين وتقدم لمن بقي من اولادها الصينيين بعد نكباتهم المتوالية امثالاً يأتسون بهم واولياء يلوذون بحماهم لينالوا بشفاعاتهم المشفعة قوّة تمكّنهم من الصبر على كلّ المحن والبلايا حفظاً لدينهم القويم

وهؤلاء الأماثل الأجلّاء عبارةٌ عن جوقة شريفة من انصار الدين اهراقوا دماءهم في سبيل الايمان في اقطار الصين والتنكين والقصنصين فنالوا اكليل الاستشهاد الذي طالما تاقت اليهِ نفوسهم وطلبوا الى الله ان يتوّج بهم هامتهم

وعددهم يبلغ ٧٧ بطلاً منهم ثلاثة اساقفة وعشرة كهنة من المرسلين الاوربيين من رهبانيّات واخويات مختلفة و٢٩ كاهناً وطنياً ثم ٥٣ من المسيحيين المتنصرين حُكم على اغلبهم بالموت في النصف الاوّل من القرن الجاري في اماكن وازمنة مختلفة وكلّهم آثروا اصناف العذابات المرّة والموت الزؤام على الكفران بدينهم فاضحى دمهم من بعدهم كزرع خصيب استنبتت منهُ كنيسة الله بالفرح اكداساً نامية واثماراً طيّبة. ولذلك قد جمعتهم اليوم في اكمامها وأدرجت أسماءهم في سلك الطوباويين وسمحت للمؤمنين بان يقدّموا لهم مراسيم التعبُّد التي تليق بأولياء الله

ولما كان هؤلاء الشهام أوفر من ان نستطيع بَسْط اعمالهم الجليلة في صفحات هذه المجلّة اخترنا منهم احدهم نعرض شيئاً من ترجمة حياتهِ فيستدلُّ القرّاء منها على فضل الباقين. والشهيد المذكور هو احد ابناء القديس منصور دي پول آثرناهُ على غيرهِ لانَّ حضرات الاباء اللازاريين في البلدة يقيمون لذكرهِ في اواخر هذا الشهر عيداً بهيجاً دُعيت اليهِ جميع الطوائف الكاثوليكيّة فجعلنا هذه النبذة كمقدّمة للعيد تُعرّف القرّاء بصاحبهِ وتحملهم على اداء فروض التجلة لشخصهِ مع طلب شفاعتهِ

*

يُدعى الشهيد المذكور فرنسيس راجيس كلهْ وهو فرنسيّ الاصل والمنشأ. وُلد في غرانوبل من ايالة دوفيناي في ١٩ آب سنة ١٧٤٩. وفي غد مولدهِ صُبغ بمياه المعموديّة. وكان ابواهُ على جانب عظيم من التقوى متعبدَين لوليّ الله فرنسيس راجيس اليسوعي الذي كان شرّف وطنهما بقداستهِ ومعجزاتهِ الباهرة في القرن السابع عشر فرَدا لم يسيرا ابنهما على مثالهِ فدعواهُ باسمهِ تيمُّنًا وسهرا على سنيهِ الأُولى بما امكنهما من الاحتياط وارضعتهُ امهُ مع الحليب افاويق التُّقى والفضيلة فنشأ الولد على الصلاح وخوف الله

ولمَّا بلغ اشدَّهُ انصبَّ في بلده على الدروس الاوليَّة والثانويَّة فبرَز فيها وكان في اثناء دروسه قدوةً لأترابهِ وفرحًا لاساتذتهِ يشيرون اليهِ بالبنان لفريد خصائلهِ. وثبت على حسن سلوكهِ الى ان انهى دروسهُ الادبيَّة والبيانيَّة. وكان يستطيع لو اراد ان ينال المراتب السنيَّة والمناصب الشريفة لكنَّهُ شعر بان الله يدعوهُ الى خدمتهِ فلم يصمّ الآذان لدعوتهِ تعالى وتأسَّى بامثال بعض اخوتهِ واخواتهِ واقاربهِ الادنَين الذين كانوا هجروا العالم ليهتمُّوا بخلاص نفوسهم في الرهبانية

وكانت اذ ذاك اخويَّة الرسالة التي انشأها القديس منصور دي پول تُعطّر فرنسة بعرف فضائلها واعمالها العجيبة الآئلة الى خير النفوس فأحسَّ الشابّ بصوت الله يدعوهُ الى هذه الاخويَّة فطلب الانتماء اليها في ٦ اذار من سنة ١٧٦٩ فأُجيب ملتمسهُ ونُظم في عداد مبتدئيها وعمرهُ ٢١ سنةً

ثمَّ ما مرَّ عليهِ خمس سنوات قضاها في امتحانات الطالبين وممارسة الفضائل الرهبانية وتتمَّة الدروس الفلسفية واللاهوتية حتى رُقّي الى درجة الكهنوت وعهد اليهِ رؤساؤهُ تدريس اللاهوت الادبيّ في مدينة أنسي فقام بهذه المهمَّة احسن قيام مدَّة ١٥ سنة متوالية واستلفت اليهِ انظار رؤسائهِ واحرز لهُ شهرةً كبيرة في بلاد سابوديا لسعة علمهِ ونموّ فضائلهِ وكان تلامذتهُ يدعونهُ المكتبة الحيَّة لما يرون فيهِ من المعارف الجمَّة والمدارك العالية

ولمَّا كانت سنة ١٧٨٨ وقع عليهِ اختيار الرهبان اخوتهِ لينوب عنهم في الجمعيَّة التي عُقدت في باريس لانتخاب رئيس عامّ جديد ليسوس اخويَّة الرسالة وراهبات المحبَّة. فاسفر المجمع عن ترقية «كيلا دي لا غرْد» الى هذا المنصب الخطير. الا انَّ الرئيس

الجديد ما لبث ان عرف فضل الطوباوي كلِه فانتدبهُ الى مهنةٍ تُعَدُّ في كل الرهبانيَّات من اشرف المراتب وأحرجها فانهُ وكل اليهِ تثقيف الشبَّان الطالبين التَرهُّب في اخويَّة الرسالة. فباشر الاب كلِه هذا العمل بما امكنهُ من الغيرة وجعل يهتمُّ بهذه الأنصاب الغضَّة يقوِّمها ويُعنى بشؤونها لتنمو وتأتي يوماً باثمار الفضيلة وتبتهج باعمالها كنيسة الله

وبينما كان الطوباوي كلِه يخدم اخويَّتهُ بهذه الخدم الجليلة اذ استعرت في فرنسة تلك الثورة العظمى التي كادت تبيد الرهبانيَّات وعُميت روح الدين فنُهب دير القديس لعازر في باريس وتشتَّت شملُ رهبانهِ واضطرَّ رئيسهم الاب كلِه الى مفارقة اولادهِ الاحباب

لكنَّ عناية الله التي تقدِّر الحوادث وتديرها كما تشاء جعلت هذه الثورة وسيلةً لخلاص نفوس عديدة. فان القديس لمَّا رأى ما دهم بلده من الرزايا استرخص رؤساءهُ بان يذهب الى الشرق الاقصى ويبشر الوثنيين بايمان المسيح ولم يزل يكرِّر طلبهُ حتى فاز بالمرغوب وأبحر الى الصين في اوائل شهر نيسان من سنة ١٧٩١ فبلغ جزيرة ماكاو مدخل المملكة الصينيَّة في اواخر تلك السنة مع شمَّاسين من اخويَّتهِ اسمهما بسنه (Pesnè) ولاميو (Lamiot)

*

قد سبق لنا في مقالتنا عن الصين والمسئلة الصينية (المشرق ٣: ٨٥١ و ٨٥٢) ما نالهُ المرسلون الكاثوليكيُّون في تلك البلاد القاصية من النجاح في فلاحة كرم الرب وذكرنا خصوصاً تقدُّم النصرانيَّة على يد الرهبان اليسوعيين الذين نالوا بعلومهم وفضائلهم ما نالوا من الاكرام ورفيع المقام لدى ملوك الصين وتمكَّنوا بذلك من إعلاء منار الدين ونشر لواء الفضيلة بين الوفٍ وربوات من عبدة الاصنام

فلمَّا كانت سنة ١٧٧٣ أُصيبت الرسالات الكاثوليكية بجرحٍ أليم في اقطار المعمور عموماً وفي مملكة الصين خصوصاً بالغاء الرهبانيَّة اليسوعية وكادت هذه الضربة تكون لازبةً لولا انَّ الله الذي يستطيع ان يقيم من الحجارة اولاداً لابرهيم (متى ٣: ٩) لم يهمل كنيستهُ في تلك المحنة العظيمة ولقيت الكنيسة بسلالة القديس منصور دي پول رُسُلاً شهاماً وعملة ذوي خبرة وثبات حفظوا ميراث الرب وزادوهُ ربحاً كما نرى ذلك رأيَ العيان في هذه البلاد وكلنا شهود على مساعيهم الخيريَّة واعمالهم المبرورة

واما الذين خلفوا اليسوعيين في رسالة الصين من الاخويّة اللازريّة فكانوا ثلاثة اعني الابوين رو (Raux) وغلان (Ghislain) والاخ باريس (Pâris) قدموا بكين سنة ١٧٨٤ واجتمعوا بمن بقي من اليسوعيين الاقدمين وتسلموا ادارة رسالتهم واتخذوا طريقتهم في التبشير. فكان بعضهم يشتغلون بالعلوم الرياضية والفلكية في بلاط الملك فينالون بمعارفهم عنده حظوى ويتألفون الى الوزراء والاعيان وينتهجون بذلك لاخوتهم سبيلاً لنشر الدين في بقيّة انحاء المملكة. فجعل الملكُ الاب رو ناظرًا على المكتب الفلكيّ وتقدّم الى الاخ باريس بان يصطنع له ساعة جميلة ففعل

وفي تلك الاثناء بلغ الاب كلهْ جزيرة ماكاو مع رفيقيه فانكبَّ على درس اللغة الصينية مدّة سنة كاملة بغيرة لا تعرف مللاً فلمّا تمكّن منها ما تيسّر له آثر لنفسه في بلاد الصين رسالةً توفرت فيها انواع الاتعاب وضروب المحن فتوغل في معاملة كيانغ سي في جنوبي الصين بين معاملتي تشي كيانغ وهونان (راجع خارطة الصين في المشرق ٣: ٧٤٣) واخذ يجمع المؤمنين المتفرقين ويرشدهم ويزوّدهم بالاسرار المقدّسة رغمًا عمّا كان يعترضهُ من العوائق في تتمّة هذه الاعمال الخيريّة

وبينما هو منكبٌّ على اعمال الرسالة لا يألو جهدهُ في هداية النفوس اذ أُصيب اثنان من المرسلين اخوته بالمرض في معاملة «هو كوانغ» وكان عدد النصارى فيها وافرًا وهم في حاجة ماسّة الى مرسلين غيورين ففضلهُ ورؤساؤهُ عن رسالة كيانغ سي وارسلوهُ الى هو كوانغ

وكانت هوكوانغ المذكورة اكبر ايالات الصين تشمل المعاملتين الحاليتين «هونان» و«هوبي» (راجع الخارطة) مساحتها تُربي على ٣٠٠٠٠ ميل مربّع ويبلغ عدد النصارى فيها نحو عشرة آلاف نسمة وهم ساكنون في انحاء شتى بينها مسافات شاسعة لا يقطعها الفارس الّا بعد ايّام طويلة واسفار شاقة

فلمّا بلغ الطوباوي كلهْ معاملة هو كوانغ وجد المرسلَيْن الوحيدين اللذين يبذران فيها بذر الايمان قد انهكت قواهما الاتعاب واضنكتهما الاسقام. فما استقرّت قدمُ رجل الله في هذه الرسالة الجديدة حتى تحفّز للعمل وشمّر عن ساعد الجدّ فاخذ يتجوّل تلك الجهات الواسعة ليجمع شتات المؤمنين بعد ما نالهم من حَيْف الزمان وظلم الحكّام وكان لا يدخر في انجاز عمله وسعًا ولا يصرفهُ عن غايته عائق مهما

الطوباوي فرنسيس راجيس كله

اللمازري

يكون . فانَّ الشدائد قويت عليهِ واكتنفتهُ من كل جانب حتى ساغ لهُ ان يردّد قول الاناء المصطفى (٢ كور ١١ : ٢٦) « كنتُ في الاسفار مرّات كثيرة وفي اخطار السُّيول وفي اخطار اللصوص واخطار الامم وفي التعب والكدّ والاسهار الكثيرة والجوع والعطش والاصوام الكثيرة والبرد والعُري ». وقد عاش هذه العيشة سبعاً وعشرين سنة حاملاً على عاتقيهِ في اكثرها اعباء الرئاسة وهو يتقدم اخوانهُ في كلّ ما يؤول الى مجد الله ونشر ملكهِ على الارض بين شعوبٍ جالسة في ظلال الموت ومتسكعة في ظلمات الجهل والشرك

وقد اكرمهُ الله بمواهب جليلة واظهر على يديهِ المعجزات الباهرة كشفاء المرضى وطرد الارواح النجسة من المتعرين بها وإرواء الاراضي اليابسة بعد ابتهالهِ الى الله فجيدت ببركة صلاتهِ بامطار غزيرة . وغير ذلك من الكرامات التي اعلت مقامهُ في اعين الصينيين واورثتهم رغبةً في اتباع الدين الحق

وكان القديس مع فضائهِ السامي يعيش بين تلامذتهِ واخوانهِ عيشةً ساذجة يعتبر نفسهُ كأدناهم وكخادم لجميعهم يتفانى في سبيل صوالحهم لا ينسى احداً الّا ذاتهُ وهو مع ذلك باسم الثغر سهل المعاشرة يسبي بلطفهِ قلوب من يقتربون من شخصهِ الكريم

وكان مع اشتغالهِ الجمّة يحيي الليالي في الصلاة ويقضي امام القربان الاقدس ساعات متوالية يدعو الى الله لاجل قطيعهِ ويستمدُّ منهُ خلاص عبدة الاوثان . وربَّما كان يسكب وقتئذٍ العبرات السخينة ولا ينفكُّ عن التنهُّد والزفرات حتى يجيبهُ الربّ الى طلبتهِ ويعزّي قلبهُ بارتداد الخطأة الى التوبة والشركيين الى الايمان

*

ومن النعم التي كان رجل الله يلتمسها من مراحمهِ تعالى موهبة الاستشهاد . فان قلبهُ المضطرم حبّاً نحو فاديهِ لم يكن ليرضى بهذه الاتعاب والاوجاع التي كان يعانيها كل يوم في خدمة النفوس فضلاً عن امراض عديدة ابتلاهُ الله بها وانَّما كان يرغب ان يسفك دمهُ لوجه خالقهِ ويثبت بموتهِ الايمان الذي أعلن بهِ في تلك الاصقاع . فلم يزل يكرّر دعاءهُ الى الله حتى اشعرهُ بنيل رغائبهِ

ومذ ذاك الحين اخذ يعدُّ المؤمنين ويقوّيهم ويتنبأ لهم بحلول الاضطهادات الوشيكة ودنوّ اجلهِ . وجاهر بذلك يوماً اذ كان يُصلّي بعد نهاية القداس فرأى عصفورين دخلا

الكنيسة وجعلا يغرّدان ويحومان حولهُ فأمسكهما ووضعهما في قفص وقال للحضور علانيةً: على مثال هذين العصفورين عمّا قليل سيقبض عليّ اعداء الدين ويودعوني السجن من اجل السيد المسيح

وفي اثناء ذلك أثار الوثنيّون سنة ١٨١٨ على نصارى الصين اضطهاداً شديداً وتهموهم بتُهم باطلة ونسبوا اليهم ما كانوا براء منهُ. فحرقوا الكنائس ومثّلوا ببعض المؤمنين وهمّوا بان يقبضوا على المرسلين ليذوقوهم من البلاد او يحكموا عليهم بالموت

فبعث حاكم مقاطعة « هوكوانغ » شرذمةً من الجند ليقبضوا على المرسلين ويلقوهم في السجن. لكنّهم لم يجدوا في منزل الاباء اللازاريين الّا كاهناً صينيّاً يدعى شان من اخويّتهم فاقتادوهُ الى الحبس. امّا الاب كلهْ فمع شوقهِ الى الاستشهاد لم يشاء ان يرمي بنفسه في الخطر قبل ان تأتي ساعتهُ فتمكّن من النجاة واختبأ حيناً في المغاور والجبال حتى بلغ مقاطعة « هونان » حيث ظنّ نفسهُ في مأمن من المغتصبين فاخذ يزور النصارى ويشدد عزائمهم فعلم بهِ احد المارقين من الايمان كان حرمهُ الاب كلهْ لسوء سلوكهِ فاغتنم الجاحد هذه الفرصة لينتقم منهُ واسلمهُ في اوائل سنة ١٨١٩ الى ايدي اعدائهِ كيهوذا الدافع.

فدخل الشهيد منذ ذاك اليوم في طريق الآلام والعذابات كابدها بما لا مزيد عليهِ من الشهامة رغماً عن طعنهِ في السّن وضعف جسمه واسقامهِ المتنوّعة. وقد دامت هذه الاوجاع سنةً كاملةً بنيف لم يسمع احدٌ من فيهِ طول هذه المدة كلمةً واحدةً تنبئ بضجر او جزع او بغض لمضطهديه

ولو اردنا وصف ما احتملهُ رجل الله من اصناف الشدائد وقت آلامهِ لطال بنا الكلام واستنكف القلم من ذكر هذه الفظائع وحسبنا ان نقول انهُ سكن سبعة عشر حبساً وقطع المسافات البعيدة وهو مكبّل بالقيود ولكم مراراً على وجههِ ورأسهِ بالنعال واضطرّ ان يجثو على ركبتيهِ ساعات مستطيلة فوق سلاسل حديديّة الى ان غُمي عليهِ من فرط الوجع

على انّ هذه الآلام ما كانت لتُضعف نفسهُ الأبيّة بل كنتَ تراهُ متهلّلاً في وسط العذابات كأنهُ يتنعّم باشهى الملذّات. ولهُ من حبسهِ رسائل تطفح بعواطف الحبّ لله والتواضع العجيب. وكان ينسى مصابهُ ليعزّي اخوتهُ المرسلين والنصارى المحبوسين معهُ

ويخفف اوجاعهم بكلامٍ احلى من الشهد. ويطلب الى الحكّام ان يختصوهُ دونهم بالضرب والقتل ويسترحوا عنهم

وامتثل الطوباوي مدّة اسره مرارًا امام الولاة الصينيين واعترف بايمانه جهارًا وأذهلهم بصبرهِ الجميل وفضائلهِ السامية حتى انّ بعضهم لم يتمالكوا عن الثناء على شهامتهِ وعن اكرامهِ. ولعلّهم كانوا اطلقوا سبيلهُ لولا خوفهم من فقدهم رتبهم وعزلهم عن مناصبهم فحكموا عليهِ بالموت شنقًا وصادق الملك على حكمهم

وكانت وفاة القديس في ١٨ شباط من سنة ١٨٢٠ قتل في مدينة "اوتشانغفو" عاصمة مقاطعة «هو كوانغ». ولمّا قادهُ الشرط الى محلّ العذاب خرّ برهةً وجثا راكعًا يستحثُّ بالصلاة عند الصليب الذي كان هُيّئ ليُشنق عليهِ ثمّ قام ببسالةٍ وتقدّم الى الجلّادين بان يربطوهُ ففعلوا. قال كاتب ترجمة حياتهِ: «وجعلوا حبلًا ضخمًا في عنقهِ وشدّوهُ بعنفٍ ثلاث مرّاتٍ وبذلك اذاقوهُ مرارة الموت ثلاثًا. وفي المرّة الثالثة اسلم الروح رافعًا عينيهِ نحو السماء بهدوءٍ وسكينة. وهكذا تطايرت نفسهُ الطاهرة الى الاخدار السماويّة فتكلّل باكليل المجد. وبعد وفاتهِ اشرق وجههُ كالشمس واخذت الانوار تنبعث من جثتهِ على حين كان الظلام المدلهمّ منتشرًا على مدينة بكين والمدن المجاورة لها». وظهر غضب الله على قاتليهِ بعد زمن قليل فان امبراطور الصين صُعق في السنة ذاتها وحُكم على الوالي القاضي بقتلهِ بان يُنشر جسمهُ لخيانةٍ بدت منهُ وأُصيب القابضون عليهِ بميتةٍ سيّئة نسبها الكلّ الى عقاب الله لهم

امّا المؤمنون فانّهم تمكّنوا من نقل جسم الشهيد خفيةً واودعوهُ اللحد باكرام واخذوا منذ ذاك الحين يزورون قبرهُ ويتبرّكون بذخائرهِ. وكان غير المؤمنين انفسهم يحتجّون الى ضريحهِ ويطلبون شفاعتهُ وقد نالوا على يدهِ نعمًا عديدة فحص عنها الكرسي الرسوليّ فحصًا مدقّقًا. فكانت نتيجة هذا الفحص القانوني ان البابا غريغوريوس السادس عشر اشهرهُ مكرّمًا سنة ١٨٤٣ ونظمهُ اليوم الحبر الجليل لاون الثالث عشر المالك سعيدًا في سلك الطوباويين نفعنا الله بصلاتهِ وصلوات اخوتهِ الشهداء المكلّلين ...ه